

تحديد وضعية عبيد توات من خلال " الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان" لأحمد بابا التنبكتي

د. الحمدي أحمد

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

— جامعة وهران —

الملخص:

هذا المقال هو دراسة مخطوطة تضمنت سؤالاً من علامة الجزائر سعيد قدورة وجهه للشيخ أحمد بابا التنبكتي²، فكانت نازلة فقهية ، ورحلة علمية، أثارت عدة نقاط:

علاقة توات بالسودان الغربي، مناطق الاتجار بالعبيد في الغرب الإفريقي، علاقة اليهود بتجارة الرقيق، موقف إمارة توات من هذه التجارة، ثم الأهلية للعبيد، وتعليمهم، وطرق تنقلهم.

وكان جواب الشيخ أحمد بابا يدور إنَّ الأصل في عبيد السودان الإسلام، فمن ادعى الحرية ولم تثبت عبوديته يحرر، وهناك من العبيد من ثبت كفرهم واشتعار ذلك عنه، فهؤلاء الآصل فيهم العبودية.

وخاتمة فيها: أن سوق النخاسة في السودان الغربي أضرت بساكنة المنطقة بسبب تجارة الرقيق الرائجة، وبسبب الحروب التي يباع فيها حتى السادة.
الكلمات المفتاحية: العبيد، توات، السودان، تجارة، حرب.

مقدمة:

إن مهمة المؤرخ الاجتماعي ليست التأريخ لكل شيء يحدث في المجتمع، بل عليه أن يركز على هدف واحد يسير إليه، وهو فهم حياة الناس في الماضي داخل إطار المجتمع ونظمه. وعليه أن يتجنب أن يكون في كل مكان في وقت واحد، لأن ذلك يجعل نتائجه بعيدة عن الصحة وغير يقينية إلى أبعد الحدود.

ولقد عرف الغرب الإسلامي على غرار المشرق ظاهرة الرقيق، الذي ورث التجارة فيه عن الحضارات الكبيرة القديمة، وخصوصا عن الحضارة البيزنطية. وقد كان العبيد القوة المحركة في العمل الجماعي في المزارع الكبرى وفي المناجم، كما كانت اليد العاملة في المدن، تتألف منهم ومن العمال الأحرار على السواء.

منطقة توات:

هي ذلك المجال الذي يقع في الجنوب الغربي للجزائر، ويضم العديد من القصور الحمراء اللون، تمتد شمالا من تيلكوزة على الحافة الشمالية لتيكورارين، ومن قصور مقاطعات تيمي، وتمنطيط، وبودا، وركان في الوسط، وفي الجهة الشرقية تيديكلت حيث تعتبر أولف، وعين صالح، أهم تجمعاتها السكنية، ويعتبر قصر حاسي لحجار، آخر قصور المنطقة في أقصى شرق تيديكلت.

وصف المخطوط:

يقع هذا المخطوط¹ في ثلاث ورقات من الحجم المتوسط، وهو نازلة فقهية ألفها أحمد بابا التنبكي²، جوابا على سؤال ورد عليه من سعيد بن إبراهيم الجزائري³، الذي كان بمنطقة توات في تلك الفترة. تضم كل صفحة 27 سطرا، وخطه مغربي حديث. وبه طرر وتعليقات، كما توجد بكل أوراقه خروم بحجم كلمة أو كلمتين في الرأس⁴.

الصلات بين توات وإفريقيا الغربية:

وترجع الصلات بين توات وإفريقيا الغربية إلى الفترات الأولى لانتشار الإسلام بالسودان الغربي. بفضل الجهد العربي العسكري للقادة العرب المسلمين الأوائل، كعقبة بن نافع الفهري، الذي قاد كتائب الجيش العربي الإسلامي عبر

صحراء ودان وفزان إلى مدينة زويلة (عاصمة فزان) على حدود السودان الأوسط في عام 22هـ/ 643 م⁵، وإلى مناطق كوار في السودان الأوسط (تقع على التخوم التشادية الليبية). ويرى البعض⁶ أن عقبة وصل إلى مدينة كل السوق، التي تقع إلى الشرق من مدينة جاور، وذلك سنة 61 هـ/ 680 م. كما ارتبط اسم هذا القائد بمناطق الصحراء الغربية، فقد وصل عقبة وجنده إلى وادي درعة (الحافات الشمالية الصحراء الغربية)، وتبعه موسى بن نصير في حملة إلى وادي درعة، حيث قبائل صنهاجة الصحراء أيضا.

وقد ظهرت منذ القرن الثامن الهجري عدة مدن إسلامية على طرق التجارة البرية، وهذا ما ساعد على ازدهارها المعماري والاقتصادي. كما اعتاد المؤرخون على الربط بين نشأة المدن وتوسعها، وبين التجارة إذ كثيرا ما تؤدي المدينة العربية دور المخزن والمتجر. وهذا ما يفسر كون المدن الهامة تقع على أهم الطرق وعند ملتقياتها⁷.

ويرجع موريس لومبار التقدم الحضاري في الغرب الإسلامي إلى توثيق العلاقة مع المشرق والأندلس، وإلى تزايد السكان، وعلى الأخص إلى: «... انفتاح أفق تجاري جديد، هو أفق السودان، أفق عالم الذهب والرقيق»⁸. على أن التجارة الرئيسية أصبحت تجارة العبيد التي دفعت ثمنها الشعوب السوداء⁹.

مناطق الاتجار بالعبيد في إفريقيا الغربية:

تجارة الرقيق في إفريقيا قديمة جدا. والنخاسة أصبحت خطرة مع تسارع أعمال الشراء. ويجب تمييز مساحتين اثنتين في النخاسة؛ واحدة بحرية وهي الأكثر اتساعا وتهم بشكل خاص الأوروبيين. والأخرى برية، تكاد تكون حصرا في أيدي المسلمين.

وتعتبر المناطق الغربية في السودان، هي المورد الأساسي للعبيد المجلولين إلى توات. تلك الأراضي كانت تستغل لتوفير الرقيق خصوصا بفضل تنظيم تجارة القوافل عبر الصحراء. وأهم فئات رقيق السودان، هم التكرور السينغاليون، والصونكي الغانيون، والصونغاي من جاور، والصاو من الكانم، الذي تمتد أراضيه غير بعيد من شرق النيجر. فهذا الرقيق يصدر إلى لمطة وإلى سجماسة¹⁰، ومن هناك يتجه إلى

المغرب الأقصى و الأندلس. أو في الجهة الأخرى إلى ورجلان والجريد ثم إلى إفريقية وفزان وطرابلس وبرقة ومصر، وما وراءها من البلدان الإسلامية في الشرق¹¹.

إن كبار التجار كانوا يطلبون تأمين العبيد. حيث يستبدلونهم بسبائك الحديد، والملح، والمنسوجات. وإذا تحولنا عن مناطق السودان الغربي بالأخص إلى الجنوب، نجد أن قبائل: كاسانج، وماتبا، قد تحولت إلى سماسرة. والعبيد يأتون من كل الجهات في إفريقيا. وفي العديد من المرات كانت تشتري الممالك الإفريقية مقابل العبيد، كميات متزايدة من الأسلحة (وهي أدوات القوة).

الحاجة إلى الرقيق:

تنتشر بمنطقة توات تضاريس صحراوية، عبارة عن هضاب وحمامات شاسعة، وأرضها هزيلة¹² جدا يلزم تسميدها باستمرار. ويخترق هذا المجال وادي مسعود، ويسود المنطقة مناخ صحراوي جاف، حيث لا تتساقط الأمطار إلا نادرا، مما يؤثر على الحياة الفلاحية، إذ يصبح الاعتماد على الري ضروري لقيام حياة زراعية. وسيتم ذلك بشق آبار الفقاقير. ويعقب ذلك أيام من العمل في الأرض حيث: خماسها (المزارع) لا يرقد ولا ينام في ريح ولا مطر ولا برد ولا غيره¹³.

كما أن ازدهار زراعة النخيل تصادف مع ازدهار تجارة التمور، التي أصبحت في المرتبة الأولى، ودخلت شيئا فشيئا في التبادل مع الجنوب¹⁴. وفي الظروف الاجتماعية الخاصة بالفترة، كانت العقبة الرئيسة على طريق تنمية الواحات، هي عدم توفر اليد العاملة. فاستصلاح الأراضي والسقي، يستدعيان العمل اليومي على مدى سنوات. والنخيل يتطلب وفرة المياه، وبخاصة في سنواته الأولى. وستحل هذه المشكلة باللجوء إلى استخدام العبيد. وقد كانت الفترة ملائمة للحصول على هذا النوع من اليد العاملة. حيث ظلت الحروب تغذي هذه التجارة،¹⁵ فانتشر النهب واختطاف الرقيق.

تعليم الرقيق :

وبهدف دمج الرقيق في المجتمع بادر أفراد من أعيان توات إلى تهذيبهم وتعليمهم. وصار من معطيات هذا التهذيب ارتقاء مجموعات من الممالك إلى درجات عليا في أنواع العلوم والآداب، فضلا عن الثقافة السياسية والعسكرية. وهذا

ما فعله الشيخ المغيلي، الذي ضمت زاويته ببوعلي عددا كبيرا من الرقيق، الذين التحقوا به بعد ثورته الأولى على يهود توات. فاستفادت مجموعات منهم ومن الجوّاري، تكويناً متنوعاً ورفيعاً أحياناً¹⁶.

ولقد كان بتوات نساء عجائز محسنات يعلمن الغناء لجوّار مملوكات لهن، ومستأجرات عليهن، تباع الجارية منهن بثمن باهض. وكان يشترط في المغنية أن تحسن الضرب على الطبل أو آلة أخرى تشتري في بيعها، وربما كانت محسنة في جميع الآلات، وفي جميع أنواع الرقص¹⁷. بالإضافة إلى ذلك عملت بعضهن كخدمات في البيوت ودلالات للسلع.

وقد كان العبيد سلعة تباع وتشتري بلا معيار محدد¹⁸، وكان ثمن الفرس الواحد يساوي خمسة عشر عبداً في فترة الأسكيين. وكانت مهمة العبد العمل في المزارع والبيوت والملاحات. وبتوات - كباقي مناطق المغرب - أسر ميسورة كانت تحتضن خدماً من العبيد، ولهم مكان راسخ في التقاليد الاجتماعية لذلك العهد¹⁹. وقد اجتهد أولئك الرؤساء في توطيد العبيد في القرى المجاورة للأراضي التي يراد استغلالها في الزراعة.

كان الجنس والعمر يلعب دوره في تحديد الأسعار. كان العبد المراهق يساوي 18 - 20 ديناراً، وكان البالغ الزنجي يساوي 30، والزنجية تساوي 300. وقد جرى تعليم أصغرهن عمراً وأكثرهن جمالاً بقصد زيادة قيمتهن التجارية²⁰. وقد صنفت رسائل مطولة، تفصل محاسن ومثالب شتى الأجناس، ومواهب كل منها²¹. في الواقع، كان هناك فن خاص بكيفية البيع والشراء.

والنوع الآخر من الرقيق، هو الرقيق العسكري، فإن حراس القصبات العسكرية بتوات، كان يتكون في الأساس منهم. هذا الحرس الذي يتولى قيادته رجال يختارون بعناية من المعتوقين. وقد وضع ابن زيدان مجلداً حولهم سماه: جنى الأزهار ونور الإبحار من روض الدواوين المعطار²². وهو يتحدث عن أصلهم وسجلاتهم.

دور الوسطاء اليهود في هذه التجارة:

كان احترام اليهود التجارة يقوم في أساسه على مجموع الجماعات اليهودية، التي انتشرت في مختلف أنحاء الغرب الإسلامي بسبب التشرّد الذي نتج

عن سقوط الأندلس. وهذه الجماعات، كونت صلات وروابط وثيقة بينها، واستقرت على حافات الطرق التجارية.

وفي مرحلة تالية، هاجروا إلى الواحات الواقعة على خط القصور، على طول الأطراف الشمالية للصحراء. هذه الهجرة مكنتهم من ممارسة تأثيرا كبيرا وعميقا على منطقة توات خلال تاسع القرون الهجرية. وكانوا يديرون في جميع القصور التواتية الخوانيت والحرف وخاصة صياغة الذهب، والمتاجرة في الرقيق جميعا، حتى الذين ثبت إسلامهم! كما امتلكوا العديد منهم، وهو ما تشير إليه النوازل التواتية بكثرة.²³ وقبل إنزال اليهود العبيد إلى السوق، يجري تجميلهم وتزيينهم حتى لا يعرف عمرهم الحقيقي. ولا مناص للباحث من الاعتماد على الإشارات المتفرقة والمتناثرة في كتب الفتاوى، ليقدم صورة ولو باهتة عن أحداث تلك الفترة.

وترجع بداية ظهور اليهود بتوات إلى القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي)، وذلك بعدما أصبحت الطريق الغربية غير آمنة. واستقروا بقاعدة الإقليم تمنطيط، ثم انتشروا في أغلب القصور الأخرى.

إمارة توات:

ويعتبر قيام إمارة توات في عهد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، انتصارا كبيرا للفئات الضعيفة في المجتمع التواتي. ولا شك أن أوضاع العبيد أصبحت أحسن حالا في تلك الفترة، على اعتبار أن المغيلي، كان أكثر إحسانا لهذه الفئة منذ البداية، ولذلك ناصره العديد منهم في ثورته. وقد أعطاهم مكانة كبيرة، ويظهر ذلك في كون أن أغلب من شاركه في سفارته إلى فاس كانوا منهم. ويشير إلى ذلك بوضوح ابن عسكر الشفشاوني: «... وكان له ستة ممالك من السودان كلهم يحفظون مدونة البرادعي عن ظواهر قلوبهم، وكلهم فقهاء. فلما استقر الجلوس بفقهاء فاس عنده، قال لأحد المماليك، واسمه الفقيه ميمون، تكلم مع الفقهاء في نازلة اليهود».²⁴

طريق تجارة العبيد:

إن طريق تجارة العبيد يمر من توات إلى تيديكلت الغربية، ويرتبط بأهم المراكز التجارية على نهر النيجر. وأهم المسالك هما مسلكان: مسلك يربط أقبلي بتنبكتو، وهي مسافة طويلة جدا، في خط شبه عمودي يمر قسمه الجنوبي بحمادة تنزروفت،

التي لا تتوفر على نقط مائية كافية (سبعة مراحل بدون ماء). ويمر هذا المسلك بملاحة تاودني ومركز أروان التجاري. وتستغرق الرحلة عبر هذا المسلك ما بين 20 يوما و30 يوما حسب الحمولة. ومن الإشارات اللطيفة أن قرب الماء في قوافل العبيد كانت تربط إلى الأمام، كي لا يشرب الرقيق سرا،²⁵ وعند اقتراب أحدهم منها، يتوقف الجمل ويصدر صوتا يشير إلى أن أحدا يفتح القربة.

أما المسلك الثاني فيربط مجموعتي قصور تيديكلت الشرقية وأقبلي، بالمراكز التجارية في الضفة الشرقية لنهر النيجر كمركزي كنو، وكوكو.²⁶ وكانت تنجّه القوافل إلى مراكز النخاسة، حيث تصحب الرقيق وتقتني كميات من الذهب والعاج. ولا يمكن للمار بهذه الطرق أن يخشى الضياع، فروث الجمال وعظام الحيوانات الميتة،²⁷ وأيضا مومياء العبيد ستدله على الطريق!

وقد كانت القوافل التجارية تأخذ تلك المسالك، وهي على نوعين: الأولى وتتكون من 100 إلى 150 جملا، وهي قوافل صغيرة،²⁸ أما القوافل الكبيرة فيتعدى عدد الجمال فيها ليصل إلى ألفي جمل، وقد تصل إلى ضعف هذا العدد في الرحلة الواحدة.

وبالنسبة للقوافل التجارية القادمة إلى تنبكتو من الشمال - عبر توات - فإن عدد الجمال فيها يصل في بعض الأحيان إلى عشرة آلاف جمل في الرحلة الواحدة! وهناك وثائق عديدة تتحدث عن قوافل يصل فيها عدد الجمال المحملة بالبضائع، إلى أكثر من مثل هذا العدد .

أسواق بيع العبيد بتوات:

إن أشهر أسواق بيع العبيد بتوات هي: تمننيط، وبودا، وتيمي، وتازولت، وتاخيفت، وتيطاف، وغرمعلي، وركان. وظهرت في هذه القصور جالية يهودية ظهرت منهم طبقة من التجار الأثرياء الذين يمارسون خصوصا تجارة الذهب والعبيد. وفي الجهة الشرقية يوجد سوق أولف، وهي مدينة محاطة بأسوار مبنية بالطين وفيها الماء والوافر والتمر «...وللسكان عدد كبير من العبيد».²⁹ وفي هذه الجهة كذلك يوجد سوق عين صالح. وشمال توات توجد تيميمون وهي حاضرة إقليم تيكورارين،

ولها سوق يباع فيه العبيد وتراب الذهب بكميات كبيرة. ويباع تراب الذهب بوزن المنقال بالأوقية.

الأهلية القانونية للعبيد:

لقد شهر بعض العلماء بالتجاوزات، التي تحدث في معاملتهم. أما وضعهم القانوني، فقد عولج بصفة محدودة - نسبيا - كإشكال فقهي من قبل بعض المفتين، لكون التابع لا حكم له لا سيما من جعل الشرع زمامه بيد غيره. وقد تجلت تلك النظرة الازدرائية تجاه العبيد في اختلاف فقهاء القرن الثامن الهجري، بشأن التعارض القائم بين التعاليم الشرعية، وبعض الممارسات الاجتماعية كظاهرة الخماسة، ووضعية الخماس: هل هو أجبر أم مشارك؟ فبعضهم رأى ضرورة إزالة الغرر بتحديد أجر ومكافآت للفلاح. في حين استسلم البعض الآخر، لضغوط الواقع الاجتماعي ورخص الممارسات العرفية³⁰.

هناك محاولات فردية لبعض الفقهاء بتوات، لتحسين أوضاع العبيد الاجتماعية. منهم الفقيه محمد بن إسماعيل المسناوي الجراي، الذي: «...أعتق عبيده ووزع عليهم ماله»³¹. وكان ذلك قبيل وفاته بقليل. ويبدو أنها صحوحة صوفية متأخرة، على اعتبار أنه ادعى المهدوية قبل ذلك. وكذلك الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن موسى عريان الرأس، الذي كان من عباد الله الصالحين وقد: «...اشترى كثيرا من المماليك واعتقهم لوجه الله تعالى»³².

دخول الفقيه سعيد بن إبراهيم إلى توات:

ويعتبر سعيد بن إبراهيم الجزائري المدعو قدورة من أبرز الوجوه العلمية بتوات، خلال القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي). وقد وصلها قادما من بني عباس، التي دخلها سنة 1015هـ/ 1606م، حيث أقام يدرس مدة غير قصيرة. وخلال شهر رمضان من العام نفسه، عقد مع الشيخ أحمد بن أبي محلي³³ بالمسجد الرئيس دروسا في الحديث مشتركة، على غرار ما كان يحدث في القرويين. وكان سعيد بن إبراهيم يمسك بيده نسخة البخاري وعليها سنده المتصل بمحدثي تلمسان، وفي المقابل يمسك ابن أبي محلي أخرى بسنده عن الفجيجيين³⁴.

سؤال سعيد بن إبراهيم حول العبيد:

وعندما وصل الشيخ سعيد بن إبراهيم إلى توات، لاحظ أعداد هائلة من العبيد المجلوبين من منطقة السودان الغربي. وهو محور سؤاله للشيخ أحمد بابا: «...والإتيان منهم إلينا كثير»³⁵ أي العبيد. ولا يجب أن يغفل الباحث أن القافلة التي رافقها ابن بطوطة من تكدا إلى توات سنة 754 هـ/ 1353 م، كانت تحمل ستمائة خادم أي العبيد النساء!³⁶ وقد تساءل سعيد بن إبراهيم: هل الإحجام عن تملكهم يكون من باب الورع؟ ويشير بوضوح إلى أن سكان بلاد برنو وكنو وكشن قد استفادوا عند أهل توات إسلامهم.

ويستطرد في ذكر الحديث الذي ذكره السيوطي، في كتابه أزهار العروش في أخبار الحبوش: «من أن سيدنا نوح عليه السلام اغتسل فرأى ابنه حام ينظر إليه فقال، تنظر إلي وأنا أغتسل، أحال الله لונك، فاسودّ فهو أبو السودان»³⁷. وبذلك تغير لونه وكان أولاده عبيدا لولد سام ويافث. ويتساءل ما معنى كون ولد حام عبيدا لولد سام ويافث؟ فإن كان يريد الكفار منهم فلا اختصاص لهم بذلك، وكذلك في أولاد أخويه سام ويافث، لأن الكافر يستباح ملكه سواء كان من الأسود أو من الأبيض. فما معنى تخصيص السودان باستيلاء الرق عليهم مع أن غيرهم يشاركهم في المعنى الموجب له؟

جواب أحمد بابا التنبكتي:

وقد قرر أحمد بابا في رسالته الحكم الشرعي في امتلاكهم، فهو يرى بأنهم مسلمون أحرار لا يجوز استرقاقهم. ويؤكد بأن بلاد السودان الغربي: «...بقرب كل منها بلاد فيها كفرة يغير أهل تلك البلاد المسلمين عليهم وبعضهم تحت ذمتهم يؤدون خراجا لهم على ما بلغنا كما هو مشهور وربما حصلت فتنة بين بعض السلاطين من هذه البلاد فيتحرك بعضهم على بعض ويغير على بلاده ويسبي ما تيسر له منهم وهم مسلمون ويبيع المسي وهو حر مسلم، فإننا لله وإننا إليه راجعون وهذا مستفيض عندهم في بلاد هوسا يغير كشن على كنو وكذا غيره وألستهم واحدة لا يعرف بعضهم من بعض إلا هذا مسلم أصلي وهذا كافر أصلي»³⁸.

ولاشك أن النشاط التجاري الكبير الذي شهدته الصحراء، وعلاقتها ببلاد السودان شجع على عمليات النهب، يشير رولف³⁹ إلى أن سلطان برنو إذا قدمت

له هدية من قبل تجار طرابلس، وغدامس، وتوات، كان يرد عليها بإعطائهم عبد أو عبيدين أو حصان: «وبالطبع لا يكلفه الرقيق شيئا وإذا ما احتاج إليهم فتنظم في مكان ما غزوة ويتم بذلك الحصول على العدد المطلوب».⁴⁰

وبشكك أحمد بابا في الحديث الذي نقله سعيد بن إبراهيم من كتاب أزهار العروش، ويشير إلى أنه وقف على هذا الكتاب ببلاد درعة. ولكنه غير متأكد إن كان هو أو مختصره المسمى نور الغيش في أخبار الحبش. ولكنه متيقن بأنه وقف على ذلك الحديث في كتاب السيوطي المسمى رفع شأن الحبشان⁴¹، ولفظه: «أما سواد ألوانهم فقال ابن الجوزي: الظاهر أنها خلقت على ما هي عليه بلا سبب ظاهر».⁴² وقد ذكر أن أولاد نوح قسموا الأرض فنزل بنو سام سرّة الأرض فكانت فيهم الأدمة والبياض، ونزل بنو يافث مجرى الشمال والصبأ فكانت فيهم الحمرة والشقرة، ونزل بنو حام مجرى الجنوب والذبور فتغيرت ألوانهم. قال ابن الجوزي⁴³: «فأما ما يروى أن نوحا انكشفت عورته فلم يغطيها حام فدعا عليه فشيء لم يثبت ولا يصح».⁴⁴ والمعتمد في سبب سواد ألوانهم هو الرجوع إلى الطينة التي خلقوا منها. وهو رأي الأشعري والسرخسي وغيرهما.

وهكذا فإن أحمد بابا وهو الخبير في الشؤون السودانية، وأبرز الوجوه العلمية، يصور الحالة التي كان يستعبد من خلالها الناس بهذه الأقاليم. والأمر الذي سهل النخاسة الحروب بين صغار الملوك، حيث كانوا يستبدلون العبيد بشرائح الملح والمنسوجات. وطريقة امتلاكهم يحرمها الإسلام، الذي ضيق سبل استرقاقهم. والشيء الغريب أنه يوجد صنف من أصناف الرقيق، لم يسمع به الفقيه أحمد بابا، وهو يقر بذلك: «... أن هذه البلاد كما قلت أهلها مسلمون إلاّ عفنوا»⁴⁵ فلا أعرف أين هي ولا سمعت بها».⁴⁶

تناول بعض المؤرخين لصفات السودان:

وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله، بأن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم. ويرد ابن خلدون على ذلك: «... وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه».⁴⁷ وقد فسر – ابن خلدون – ظاهرة الرقص والبساطة في التصرف، تفسيراً يستند إلى المناخ الحار

وأثره على نفوس السكان وعقولهم. والجدير بالذكر أن الأثر المناخي على الأمزجة واللون، الذي اهتدى إليه ابن خلدون أثناء حديثه عن السودان، سيكون له أثره في كتابات العلماء السودانيين فيما بعد ⁴⁸.

رحلة العبيد:

لقد كانت الرحلة عبر الصحراء شاقة جدا، كان امتحانا رهيبا بالنسبة للمعتقلين التعساء. إنها اللحظة الأكثر عذابا، حشد العبيد بوجه عام كبير، وإن أخطار الطريق عديدة: عواصف رملية هوجاء وعاتية، خاصة ربح القبلي وهي عاصفة سرعتها ثلاثون مترا في الثانية، وتستغرق عدة ساعات أو نصف نهار، ومرات أربعة أيام بلياليها. ⁴⁹ وهجمات قطاع الطرق في المناطق التي لا تخضع للنظام، أعمال السلب والنهب منتشرة، وهو ما أوجب توفير الحراسة خاصة في الليل. ومن المخاطر أيضا في مجال الغابات أعداد الناموس التي لا تحصى، والذباب الذي يجتذبه التمر الحلو، وفي المساء الأفاعي ولدغات العقارب. الكثير منهم معرض للموت بسبب اشتداد الحرارة في الصيف، والبرد القارس في الشتاء، والتعب الشديد وقلة المؤونة. وكثيرا ما تشهد عندئذ محاولات للتمرد. وعند الوصول يهيؤون للبيع. والنخاس في الغالب. يفضل البائع المقايضة بالسلع، لأن هذا يؤمن له على الفور حمولة العودة. وهكذا فإن منطقة السودان الغربي، تفقد كل عام من مادتها لصالح المناطق الأخرى، توات - وغيرها من المناطق - تأخذ اليد العاملة، والتجار ينالون ريع هذه التجارة المخجلة.

إن تركيب المجتمع التواقي الإسلامي، يحرص على التوازن بين جميع الفئات. غير أن العواصف الشديدة تهب من آن لآخر لتقتلع جذور ذلك التوازن. فبعد فتنة يحمّد وسفيان، ظهرت الفوارق جلية. وعلى خطر شأنها، فقد شطرت البلاد شطرين. وعند الرجوع إلى النوازل الفقهية، يجد الباحث أن بعض الفقهاء من يغالي في إبراز مساوئ الرق، وكذا نوايا بعض مالكي العبيد. كما أسرفت نوازل أخرى في تضخيم مثالب التجار، الذين يشكلون زعامات فعلية في البلاد السائبة.

ومع مرور الوقت أصبحت قضية الرق تنطوي في ثناياها على مشكلة أخرى، توشك أن تكون عصبية الحل، هي التفرقة. حيث أن تفوق بعض العبيد

علمياً، لم يكن ليرضي بعض أفراد المجتمع. وهذا ما يمكن أن يتلمسه الباحث من كلام ابن عسكر في معرض حديثه عن سفارة الشيخ المغيلي لفاس ومناظرته لعلمائها: «... فأنف الفقهاء من الكلام مع المملوك ورجعوا إلى ديارهم»⁵⁰. وهي إشارة واضحة على أن العلم في أغلب جهات مغرب القرن التاسع الهجري، كان حكراً في الغالب على فئة الأحرار دون العبيد. ولم تكن توات لتمثل الاستثناء في هذا الأمر.

وهذا ما يجعل الباحث يؤكد على أن توات، مرت بفترة تاريخية يبدو أن رأي الشرع لم يكن معتبر، خاصة خلال العقد الثاني من القرن العاشر الهجري. أين أصبحت تتلاعب بمصير المنطقة مجموعة من الدهماء، الذين تواطؤ مع اليهود ومن ينصرهم، من كبار التجار وشيوخ القبائل. هذه الأوضاع تتطابق مع الحالة الاقتصادية، التي كانت أقل لمعانا مما يصفه ولد بابا حيدة.⁵¹ فهناك معلومات أخرى، توحى بأن الرحيل نحو المراعي الجيدة في الشمال، كان نتيجة لتعاقب سنوات من الجفاف بما.

والثابت تاريخياً أن سكان السودان الغربي، أسلموا بلا استيلاء أحد عليهم. فهم مسلمون أحرار أسلموا قديماً منذ القرن الخامس الهجري. غير أن أحمد بابا يشير إلى وجود طائفة وراء منطقة جني، ويؤكد: «... أنهم كفار ولا ندري هل بالأصالة أو ارتدوا»⁵². كما وجدت فرقة أخرى أشار إليها أحمد بن القاضي التنبكتاوي، الذي ذكر ما يثبت -حسبه- كفرهم بالعلم القطعي وبالتواتر المفيد للعلم الضروري. وهو هنا يلمح إلى فئة من الرقيق ارتدوا، وقد ذكر أسماء آلهتهم، فقل: «منهم من لم يشاهد أفعالهم من ذبح وسجود وبخور... وان قال قائل لأي شيء تسميهم العبيد وهم معتقون والمعتق حر، قلت له لأنهم رجعوا إلى أصل الرق الذي هو الكفر».⁵³

وبصرح أحمد بابا في موضع آخر من رسالته⁵⁴ بأن القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت⁵⁵ بتبكتو، كان يحكم بالحرية لكل عبد يدعيها، وينزعه من يد مالكه حتى يثبت هذا الأخير الملكية وإلا حكم بحريته. وقد أفق بأن كل من يتحرى السلامة لنفسه، يجب عليه ألا يشتري منهم إلا من يسمي بلاده. وهذا ما أفق به كذلك الفقيه الحافظ مخلوف البلبالي⁵⁶، الذي قال بأن: «... أهل كنو، وبرنو، وكوبر، وجميع سغي⁵⁷، مسلمون لا يجوز تملكهم».⁵⁸

وقد نقل الفقيه حمى الله التشيقي⁵⁹ الخلاف فيمن ادعى الحرية وذكر أنه من بلد كثر فيه بيع الأحرار، خاصة في فترة سيطرت المخازنية على بلاد السودان، فقد أفتوا بنزع العبد من يد مالكه.⁶⁰ وهو هنا ينقل عن أحمد بابا في حاشيته المسماة: بمن الرب الغفور ببيان مهمات خليل، ونصه: «من ادعى الحرية وذكر أنه من بلد كثر فيه بيع الأحرار، ووافقه المبتاع على أنه اشتراه من تلك البلاد... منهم من قال⁶¹ إنه يكلف المشتري إثبات رقه. ومنهم من قال⁶² البينة على مدعي الحرية. وقال ابن زرب على السيد الإثبات على صحة شرائه من مالكه وكان سيدنا محمد بن عمر يحكم بنزعه من يد من بيده حتى يثبت الملكية».⁶³

الخاتمة:

لقد كانت النخاسة بالنسبة للسودان الغربي عامل إفقار كبير. ولا شك أن عمليات أخذ اليد العاملة البشرية كان خسارة بلا مقابل، إذ أن حضارات تلك البلاد، كانت تتركز بشكل كبير - تقريبا - على الزراعة، التي افتقدت إلى الأيدي العاملة. ولم يكن أسرى الحرب وحدهم يباعون، الحقيقة بعيدة عن ذلك؛ بل أيضا الرؤوس القوية، والأعداء الشخصيون، وحتى الأولاد! إن حروبا عديدة كان مردها إلى هذه التجارة المخجلة. وبطبيعة الحال فإن تجار الرقيق، يتحملون المسؤولية في تدهور مناطق السودان الغربي وفي سقوطها.

الهوامش:

- (1) قد حقق من طرف جون هنويك وفاطمة الحراق وخرج بعنوان: معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط، ط الأولى 2000. وقد بعث إلي الأستاذ الدكتور عبد الإله بنمليح بنسخة منه فأشكره جزيلًا. لكن ما يؤخذ على هذا التحقيق هو الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها الأستاذة في ضبط النص، للاختلاف بين النسخة المعتمدة كأصل والنسخة الأم الموجودة بتمنيط بمنطقة توات. بالإضافة إلى تحريف اسم صاحب السؤال وهو: الفقيه سعيد بن إبراهيم الجزائري، حيث حرفا كلمة الجزائري وأصبحت الجرازي! ولم يتمكننا بذلك من إعطاء ترجمة لسعيد بن إبراهيم الجرازي! لأنه لا وجود له في كتب التراجم بل يوجد: إبراهيم بن عبد الكريم الجرازي. ينظر ترجمته عند: مجهول، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، نشر هوداس، باريس، ط 1899، ص ص: 1-2. أشار للمخطوط مجموعة من الباحثين على غرار عبد العزيز بن عبد الله في موسوعته حيث قال: حكم بيع العبيد المجلوبين من السودان، كتبه جوابا عن سؤال ورد من توات حول تملك العبيد عام 1023 هـ. ينظر: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، ج 3، مطبعة فضالة الحمديّة المغرب، ط 1976، ص: 88.
- (2) هو أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التنبكي الصنهاجي الماسني التكروري السوداني المالكي عرف بابا. ولد 963 هـ/ 1556 م، وتوفي سنة 1036 هـ/ 1627 م. ينظر: حسن الصادقي، مخطوطات أحمد بابا التنبكي في الخزائن المغربية، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، ط الأولى 1996، ص ص: 6-7.
- (3) سعيد بن إبراهيم الجزائري: فقيه جزائري مفتي الجزائر أبو عثمان، أخذ عن سعيد المقرئ وغيره. وأخذ عنه محمد بن إسماعيل مفتي الجزائر، ويحيى الشاوي وغيرهما. من آثاه شرح الصغرى للسنوسي، وشرح السلم المرونق، وشرح على جوهر التوحيد توفي 1066 هـ/ 1656م. ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض بيروت، ط 1980، ص: 256.
- (4) المخطوط يوجد بخزانة بكرراوي بتمنيط في منطقة توات.

- (5) صباح الشبخلي، "ملاحظات حول انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقية جنوب الصحراء"، مجلة آفاق التراث، تصدر عن قسم الدراسات والمجلة بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث دولة الإمارات العربية المتحدة، عدد 38، تموز 2002 م، ص: 20.
- (6) الهادي المبروك الدالي، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء، مطابع الوحدة العربية الزاوية، ط الأولى 2000م، ص: 116.
- (7) عثمان محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، مطابع الرسالة الكويت، ط 1988، ص: 252.
- (8) 8 - خالص الأشعث، المدينة العربية، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر الكويت، ط 1982، ص: 11.
- (9) لومبار موريس، الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي، دار الجليل بيروت ودار الأفاق الجديدة المغرب، د ت، ص: 290.
- (10) جوزيف كي زيربو، تاريخ إفريقيا السوداء، ترجمة يوسف شلب الشام، منشورات وزارة الثقافة دمشق، ط 1994، ج 2، ص: 687.
- (11) أصبحت سحلماسة مركزا لدويلة بني مدرار منذ أواخر القرن الثامن الميلادي، كما تحولت بسرعة إلى ميناء صحراوي وسوق كبيرة للذهب والعبود.
- (12) ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 1983، ج 2، ص: 133.
- (13) بن بابا حيدة، القول البسيط في أخبار تمطيط، تحقيق فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1977، ص: 16.
- (14) 14 - بيبير بونت، إمارة آدرار، ترجمة بوبة ولد محمد نافع، نشر المركز الإفريقي للأركيولوجيا نواكشوط، ط 2002، ص: 86.
- (15) المغيلي، أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1989، ص: 172.
- (16) على غرار ما كان يحدث في الأندلس. ينظر: محمد المنوني، "ثقافة الصقالبة في الأندلس"، ضمن أعمال الفقيه المنوني أبحاث مختارة، منشورات وزارة الشؤون الثقافية، مطبعة دار المناهل المغرب الأقصى، ط فبراير 2000، ص: 321.

- (17) جاك ريسلر، الحضارة العربية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات بيروت وباريس، ط الأولى 1993، ص: 65.
- (18) للاطلاع أكثر على هذا الموضوع يرجى قراءة: عبد الإله بنمليح، ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط 2002.
- (19) مصطفى الشاوي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، مطبعة فضالة الحمديّة المغرب، ط الأولى 1995، ص: 139.
- (20) جاك ريسلر، المرجع السابق، ص: 65.
- (21) من أمثال هذه الرسائل: الطراز المنقوش في محاسن الحبوش لأبي المعالي علاء الدين محمد بن عبد الباقي البخاري المكّي، وقد جمع فيها مناقب الحبوش العلية ومراتبهم السنية، وما لهم من أخلاق رائعة لطيفة، ومبادئ عزيزة شريفة، ومحاسن وصباحة، ورشاقة وملاحة، وجعلها في مقدمة وأربعة أبواب. توجد منها نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط رقمها 2392. وهناك رسالة للجاحظ عنوانها مفاخرة الجوّاري والغلمان، وقد حققها شارل بيللا. ينظر: مجلة معهد المخطوطات العربية، ج 2، نوفمبر 1957، ص: 335.
- (22) توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الكلاوي بالمغرب.
- (23) مجموعة من فقهاء توات وتلمسان، النوازل التواتية، مخطوط بخزانة بركاوي بتمنيط، دون ترقيم.
- (24) محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر لحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبعة الكرامة الرباط، ط الثالثة 2003، ص: 118.
- (25) في الوقت الذي كان رولفس يشرب كل خمس دقائق كوبا من الماء خلط بشيء من التمر الهندي. ينظر: غيرهارد رولفس، عبر إفريقيا رحلة من البحر المتوسط إلى بحيرة تشاد وإلى خليج غينيا، ترجمة وتعليق عماد الدين غانم، منشورات مركز البحوث والدراسات الإفريقية سبها، د ت. ص: 193.
- (26) محمد أعقيف، "المسالك الصحراوية توات حلقة اتصال بين المغرب وإفريقيا الغربية"، أعمال ندوة العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية، منشورات عكاظ الرباط، ط 1992، ص ص: 65-55.
- (27) رولفس، المرجع السابق، ص: 226.

- (28) علي محمد عبد اللطيف، تمبكتو أسطورة التاريخ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الجماهيرية ليبيا، ط الأولى 2001، ص: 29.
- (29) ابن الدين الأغواطي، رحلة من السودان إلى واحة توات، ضمن أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر للأستاذ سعد الله أبو القاسم، ج 2، ص: 258.
- (30) ينظر في هذا الشأن: محمد يحيى بن محمد المختار الولاقي، منهاج الأبرار في رد حكم من حكم باسترقاق الأحرار، نسخة المعهد الموريتاني للبحث العلمي، رقم 1173.
- (31) محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر مطبعة فضالة، ط 1978، ج 2، ص: 630.
- (32) عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، طبعة بردين أنجي، ط 1898، ص ص: 52-55.
- (33) أحمد بن أبي محلي السجلماسي: الفقيه الأديب الصوفي الثائر، دخل إلى قرى بني عباس للمرة الأولى وهو في طريقه إلى الحج عام 1000 هـ / 1591 م، فمكث بها ثلاثة أشهر تزوج خلالها بنت شيخ البلد عبد الله بن محمد بن شمس الدين العباسي، ثم استقر بها نهائيا بعد رجوعه من الحج. أقبل ابن أبي محلي في بني عباس على التدريس، وتنوعت دروسه فشملت اللغة وقواعدها والحديث والفقه والتصوف، وأخذ عنه ملاً من خيار الطلبة - على حد تعبيره - ، وفيها ألف معظم كتبه. ومنها قام بالثورة عام 1019 هـ / 1610 م فاكتمل الجنوب المغربي مارا بتفاليات فدرعة فمراكش حيث عاش ملكا في قصر البديع زهاء ثلاث سنوات قبل أن يجر صريعا في معركة كيليز. ينظر: محمد حجي، الحركة الفكرية، ج 2، ص ص: 625-626.
- (34) محمد حجي، المرجع السابق، ج 2، ص ص: 626-627.
- (35) أحمد بابا، الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، و 1 و.
- (36) محمد بن عبد الله بن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة بيروت، ط الرابعة 1985، ج 2، ص: 801.
- (37) أحمد بابا، معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، تحقيق وترجمة فاطمة الحراق وجون هانويك، ص: 46.
- (38) أحمد بابا، الكشف والبيان، و 2 و.

- (39) وصل الحشائشي قبل رولفس لبرنو بقليل وقد حصل مقابل الهدية التي قدمها لسلطانها على أرقاء وإماء استطاع أن يبيع كل منها في مصر مقابل 200 إلى 300 تالر. ينظر: رولفس، الرحلة، ص: 270.
- (40) رولفس، المرجع نفسه، ص: 270
- (41) يوجد كتاب آخر لأحمد بن أبي الحسن العلوي الحسن سماه: الذهب المنقوش في محاسن الحبوش، يقول المؤلف في ديباجته: إنه لم اطلع على رسائل السيوطي، الأولى رفع شأن الحبشان، والثانية أزهار العروش في أخبار الحبوش، والثالثة في الدراري لأبناء السراري، رأى أن يكتفي بدراستها والاقتباس منها، ليضع كتابه المذكور. يوجد ضمن مجموع رقمه 333، ونسخة أخرى رقمها 903، بالخرانة الحسنية بالرباط.
- (42) له كتاب هام في هذا الباب لا يزال مخطوطا وهو: تنوير الغيش في فضل السودان والحبش، وتوجد منه نسخة مخطوطة بجامعة ياييل الأمريكية، رقمها 197 .
- (43) أحمد بابا، معراج الصعود، ص: 60.
- (44) له رسالة عنوانها: مختصر إيوان الغيش، وتوجد مخطوطة بجامعة ياييل الأمريكية، رقمها: 198.
- (45) أحمد بابا، الكشف والبيان، و 2 ظ.
- (46) عفنو هي لفظة كانورية برنوية تعني هوس.
- (47) عبد الله بن محمد بن فودي، ضياء السياسات وفتاوى النوازل مما هو من فروع الدين من المسائل، تحقيق وتقديم أحمد محمد كاني، الزهراء للإعلام العربي القاهرة، ط الأولى 1988، ص: 159.
- (48) عبد الرحمن بن خلدون، ترجمان العبر، طبعة بيروت 1967، ج 1، ص ص: 149-150.
- (49) عبد القادر زيايدية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء دراسات ونصوص، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1989، ص: 42.
- (50) ابن عسكر، دوحة الناشر، ص: 118.
- (51) رولفس، المرجع السابق، 188.
- (52) ولد بابا حيدة، المرجع السابق، ص: 28.

- (53) أحمد التنبكتاوي، هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر، نشر عبد الجليل التميمي، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، ط 1981، ص ص: 41-47.
- (54) أحمد بابا، الكشف والبيان، و3و.
- (55) محمود بن عمر: فقيه تنبكتو. له شرح على مختصر خليل بن إسحاق، وكان عالما عاملا زاهدا عابدا. وتولى القضاء بتنبكتو سنة 904هـ فشدد في الأمور وسدد، وتوخى الحق في الأحكام، وهدد أولياء الباطل حتى ظهر عدله، وعرف فضله، مع ملازمته للتدريس فانتفع به بشر كثير، وأحى العلم، وكثر طلابه، ونجب منهم جماعة كثيرة. توفي سنة 955 هـ. ينظر: أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمد أبو النور، المكتبة العتيقة تونس ودار التراث القاهرة، ط الأولى 1971، ج 2، ص: 321. ونيل الابتهاج لأحمد بابا.
- (56) مخلوف بن علي بن صالح البلالي الفقيه والقاضي: أخذ بفاس عن ابن غازي وغيره، وله رحلة وسماع وسند. توفي في حدود الخمسين وتسعمائة. ينظر: أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر الرباط، ط 1973، ص: 334.
- (57) هكذا وردت في الأصل، لكن أعتقد أنها سغفي.
- (58) أحمد بابا، معراج الصعود، ص: 58.
- (59) نوازل حمى الله التشيقي، تحقيق محمد المختار بن السعد، دار القلم دمشق وحروف للنشر والتوزيع أبوظبي، ط 1431 هـ/ 2010م، ص: 375.
- (60) المصدر نفسه، ص: 376.
- (61) على غرار محمد بن وليد القرطبي، ويحيى بن عبد العزيز المعروف بابن المواز.
- (62) وهو قول ابن لبابة.
- (63) مخطوط جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم: 5258 ت، ج 2، و: 227.